ميكانيزم الإبدال

بقلم

كمال الدين عبد الحميد نابل

مدرس الفلسفة بشبين الكوم الثانوية

يعيش الإنسان فى صراع بين دوافعه اللاشعورية العنيفة النزاعة دائماً إلى التعبير عن نفسها دون ما احتفال بالواقع من ناحيته ؛ وتقاليد المجتمع وآدابه التى عليه أن يلتزمها وإلا كان عرضة للنقد الذى قد يشتد فيصل إلى حد النبذ من ناحية أخرى . وإحدى الحيل التى تتخذها الدوافع اللاشعورية العنيفة للتعبير عن نفسها هو الإبدال .

ولكن ماذا نعنى بالإبدال ؟ يمكن أن يعرف الإبدال بأنه انتقال الانفعال أو الرغبة أو الفكرة أو الخيال من شخص أو موضوع كانت موجهة إليه فى الأصل إلى شخص أو موضوع آخر . والأصل فى الإبدال أن ينظر إليه على أنه نقل للمشاعر الوجدانية أو الاتجاهات النفسية أكثر مما هو نقل فعلى للسلوك ؛ ولكن نقل السلوك يمكن النظر إليه على أنه المظهر الخارجى الذى يتخذه الإبدال . فتقرب الطفل نحو رجل ما لشعوره بأن أباه شخص يوثق به ويمكن الاعتماد عليه كمثل توضيحى بسيط لعملية الإبدال .

ولعل مما يساعدنا على توضيح ميكانيزم الإبدال ذكر الدوافع المحركة له والنماذج المتنوعة التى يتخذها والفروق التى تميزه عن غيره من الظواهر الشبيهة به كالفعل المنعكس الشرطى . ويلاحظ الباحث أول ما يلاحظ ظاهرة على درجة كبيرة من الأهمية فى توضيح ميكانيزم الإبدال ألا وهى ظاهرة انقسام الحالة الوجدانية Splitting of the affect. فيشير الإبدال إلى أى نقل للانفعال أو الرغبة أو الفكرة ولكن ما يهمنا أكثر هو نقل الحب والكراهية . فيتعلم الطفل الحب أول الأمر فى المجال العائلى . ويرى منذ وقت مبكر أن الأب والأم موضوع للرغبة . ويحتاج الطفل إليهما أول الأمر لأنهما يحميانه ويحققان له إرضاء رغباته ثم يتطور

الأمر بعد ذلك إلى الرغبة فيهما فقط . وكلما ازداد نمو الطفل واتسعت دائرة أصدقائه ومعارفه فإنه سرعان ما ينقل أو يحول مشاعر الحب والصداقة إلى الأشخاص الذين يصادفهم فى مجالاته التى تتسع دواماً .

وكذلك يشعر الطفل بالكراهية أول ما يشعر فى المجال العائلى . وينقل مشاعر الكراهية التى يشعر بها إزاء أبيه أو أمه إلى الإخوة والأخوات أولا وبعد ذلك إلى الأصدقاء وزملاء اللعب ثم تتسع الدائرة فتشمل عدداً كبيراً من الناس . ومن المهم أن نلاحظ أن الوجدانات والرغبات والأفكار الخيالية الموجهة نحو شخص معين يمكن أن تنقسم وتنفصل فى عملية الإبدال وتوزع على عدد كبير من الأشخاص . فإذا كان فى الإمكان أن نحب أو نكره نفس الشخص فى نفس الوقت ، فإنه من الصعب التوفيق بين هذه الاتجاهات المتعارضة بطريقة شعورية وهذه المشاعر والوجدانات الثنائية (التى تشتمل على الحب والكراهية فى نفس الوقت) التى يشعر بها المرء نحو شخص معين يمكن أن تنقل إلى عدد كبير من الأشخاص وبهذه الطريقة تتبدد شدتها . ولعل المثال الآتى يوضح ما نقول .

ولبر شاب[1] يشعر بمشاعر مختلفة نحو الأشخاص الذين يتعامل معهم . فيشعر بنوع من الإذعان والضعة بالنسبة لمن هم أرقى منه كعميد الكلية مثلا ، ويعانى صعوبة فى محاولته أن يكون طبيعياً فى حضرتهم ، ويشعر بإزاء بعض زملائه بشعور الزمالة فى وجودهم . ويميل إلى السخرية من بعض زملائه الذى يحس أنه أرقى منهم . ويشعر نحو البعض القليل من زملائه بالحسد والغيرة ويستجيب لمعاملتهم كما لو كانوا أعداءه فى معركة هامة . ويبدو أن سلوكه هذا خارج عن إرادته تماماً .

ولقد تكشف التحليل عن أن هذه الاتجاهات التى يسلكها بإزاء من يتعامل معهم ترجع أصولها إلى عهد الطفولة وأنها صورة لمواقفه واتجاهاته فى الطفولة بالنسبة لأبيه : فأحياناً كان يشعر بأن أباه يمثل السلطة كلها ويشعر بتفاهته وعدم قيمته وأحيانا أخرى كان أبوه صديقاً له . وفى بعض المناسبات كان يشعر بأنه منافس لأبيه فى العائلة ، وكثيراً ما وجد — فى صغره أنه يشعر بنوع من الخجل إذا ما قارن أباه بغيره من الرجال . وانقسام الحالة الوجدانية بالنسبة للشخص يخدم وظائف متعددة مهمة . فهى تمكن المرء من الشعور والسلوك بكل قلبه دون ما شك أو ذنب

(1) Percival Symonds: "Dynamics of human adjustment", p. 253.

نحو شخص آخر وهذا لا يتأتى إذا ما عرف الإنسان أن فى الامكان إضمار عكس هذه المشاعر . ولنوضح ذلك القول بمثال . لنفرض أن ولداً ما يحب ويكره أمه ولكنه يشعر بشىء من الخجل من إضماره لهذه الاتجاهات العدائية التى لا تقرها قواعد الأخلاق نحو أمه . فيضطر إلى كبت هذه الاتجاهات العدائية . فإذا ما نقل هذه الاتجاهات العدائية من الأم نحو غيرها من النساء ولتكن عمته أو خالته فإن ميوله العدائية ستجد منفذاً للتعبير عنها وفى نفس الوقت يتمكن من التعبير عن مشاعر الحب نحو أمه دون ما شعور بالذنب ، وعلى هذا النحو تكون الصعوبة التى يعانيها المرء شعورياً فى حبه وكراهيته لنفس الشخص فى نفس الوقت الدافع الحقيقى للابدال . والإبدال — بهذه الطريقة — يسمح للفرد على أن يتعرف مشاعره بإزاء شخص ما وحينئذ يقنع هذه المشاعر المضادة بالنسبة لهذا الشخص بنقلها إلى شخص آخر أو موضوع آخر حيث لا يكون فى نقلها إليه أى معارضة .

والإبدال ميكانيزم ينحو إلى العناية بمشاعر أو اتجاهات معينة تعلم الفرد بخبرته أنها غير نبيلة وشريرة وغير لائقة ، وبما أن هذه المشاعر تكون فى حالة كبت جزئى فإنها تنقل أو تزاح إلى شخص ما أو شىء ما . وبهذه الكيفية يتاح لها التعبير عن نفسها . فالدافع إلى الإبدال إذن هو كبت نزعة ما بسبب خطورتها أو عدم رضاء المجتمع عنها . فيسمح الإبدال لهذه الانفعالات العنيفة بالتعبير عن نفسها دون حاجة إلى معرفة الشخص أو الموضوع الأصلى الذى كان هدفاً لهذه الانفعالات وإذا ما كبت الحب والكراهية كبتاً مطلقاً فإن هذا سيؤدى حتماً إلى زيادة التوتر النفسى . فالإبدال يعين المرء على التعبير عن انفعالاته دون معرفة من جانب الشخص بالموضوع الأصلى الذى كانت هذه الانفعالات موجهة إليه فى الأصل ومن ثم يحمى الشخص من معرفة المعنى الذى تستهدفه هذه الانفعالات . وفوق ذلك ، فالإبدال وسيلة لتنقية الوجدانات والمشاعر نحو شخص نرغب فى حبه أو نخاف من كراهيته وبهذا يكون الإبدال وسيلة لتخفيف الصراع الناجم عادة عن التناقص الوجدانى Ambivalence

ويلاحظ دائماً فى الإبدال رابطة ما بين الموضوع الأصلى والموضوع البديل . وقد تكون هذه الرابطة بارزة أو دقيقة . ويمكن للمرء أن ينقل مشاعر الحب أو الكراهية من شخص إلى آخر يشبهه فى الطول أو لون العين أو لون الشعر . . . . الخ ويبدو أن الصوت ودرجة تلونه له قيمة وجدانية خاصة .

وعلينا الآن أن نميز بين الإبدال والفعل المنعكس الشرطى . ولنبدأ بالفعل المنعكس الشرطى . لاحظ بافلوف أثناء تجاربه فى عملية أن لعاب الكلب — الذى اتخذه موضوعاً لتجاربه — يسيل قبل وضع الطعام فى فمه . فقد يسيل اللعاب لمجرد رؤية الخادم أو سماع وقع خطواته . ومما لا جدال فيه أن وجود الطعام مثير طبيعى لسيلان اللعاب ولكن رؤية الخادم أو سماع وقع خطواته ليست مثيرات طبيعية لسيلان اللعاب . ولكنها قد ارتبطت بالاستجابة من طول المدة التى اتخذتها التجارب مما دعا إلى أن تكون إشارة أولية على قدوم الطعام . ولقد استعمل بافلوف اصطلاح « الفعل المنعكس الشرطى » للدلالة على الفعل المنعكس الذى ترتبط فيه الاستجابة بمؤثر بديل « كدق الجرس — اضاءة لمبة كهربائية » للمؤثر الطبيعى .

وعلينا أن نتساءل الآن ، هل ينبغى النظر إلى عملية الإبدال على أنها عملية لا تزيد شيئاً عن ظاهرة الفعل المنعكس الشرطى ؟ ولقد وجه كثير من المحللين النفسيين النظر إلى العلاقة الوثيقة بين ميكانيزم الإبدال والفعل المنعكس الشرطى .

ويذهب فرنك (١) Frink إلى القول بأن التحويل Transference — وهو شكل من أشكال الإبدال — عملية تطابق كل المطابقة الفعل المنعكس الشرطى .

ويعتقد داليبيه Dalbiez (٢) — ويشاركه الرأى كثيرون من علماء النفس — بوجود فارق كبير جوهرى بين الفعل المنعكس الشرطى والإبدال . فى الفعل المنعكس الشرطى لا تنفصل الطاقة الوجدانية حقيقة عن موضوعها الأصلى . فإذا ما استعمل المؤثر الشرطى مدة طويلة دون أن يكون مصحوباً بالمؤثر الأصلى (تقديم الطعام) فإن الحيوان يكف عن الاستجابة . وعلينا أن نلاحظ أن الحيوان يستجيب دواماً للمؤثر الأصلى . والأمر على خلاف ذلك فى الحالات النموذجية للابدال . فى الابدال يحتفظ الموضوع الثانوى أو البديل بقدرته على إطلاق الحالة الوجدانية بشكل ما ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الموضوع الأصلى يفقد هذه القوة . من هذا نرى أن الإبدال بمعناه الدقيق يختلف عن الفعل المنعكس الشرطى وأن له طابعاً تتفاوت درجته من حيث الشذوذ .

ويجب أن نضيف إلى ذلك أن الابدال كما يراه فرويد (٣) إنما هو دائماً من

(1) Frink: "Morbid fears and Compulsions", p. 119.
(2) Dalbiez: "Psychoanalytical Method & the doctrine of Freud, p. 83/
(3) Freud: "Introductory Lectures on Psycho-Analysis", p. 147.

فعل الرقيب . وعلى هذا يتضمن الابدال غائية لا تتحقق بالنسبة للفعل المنعكس الشرطى .

ولا ينبغى أيضاً الخلط بين الإبدال والتحويل على النحو الذى قال به ريبو Ribot . فلقد كتب السيكولوجى الفرنسى وصفا رائعاً للعدوى الانفعالية التى يتم بها انتقال الوجدان من الموضوع الرئيسى إلى الموضوعات التى تربط بها علاقة ما « فلا يقتصر المحب فى حبه على محبوبته بل يمتد حبه إلى كل ما له صلة بالمحبوب فتراه يحب أثاثها ورياشها ومنزلها . . . . الخ » . فالتحويل كما فهمه ريبو Ribot ليس إلا القابل النفسى للفعل المنعكس الشرطى .

ولعل أكثر الظواهر قرباً بعملية الابدال هى ما أطلق عليها بيير جانيه Pierre Janet فى كتابه الموسوم Les Obsessions et la Psychasthénie لفظ الاشتقاق deriviation ويقول جانيه فى وصف الاشتقاق « عند ما تبقى قوة معدة فى الأصل لأن تبذل فى إيجاد أثر معين غير مستخدمة لأن هذا الأثر أصبح مستحيلا تحدث الاشتقاقات أى أن هذه القوة تبذل فى إيجاد آثار أخرى لم تكن فى الأصل مقصودة كما أنها تافهة » ويضرب لذلك مثلا بقوله « عند ما نلاحظ إخلاص وولاء المرأة التى لا ولد لها لكلب أو ببغاء فإننا نكون نزاعين إلى القول بأن هذه حالة اشتقاق من حب الأم »

ويمكن أن نستنتج مما سبق الحقيقة الآتية : بينما يتميز الإبدال عن الفعل المنعكس الشرطى لبافلوف فإنه يناظر فى جوهره « اشتقاق » جانيه . فليس هناك فارق ذاتى بين الإبدال والاشتقاق ! وكل ما هناك من وجوه الاختلاف هو اختلاف ظاهرى : فإن كلا من فرويد وجانيه لا يرجعان الظاهرتين إلى أسباب وعلل واحدة فيرى جانيه أن انحراف التغير الوجدانى يمكن أن يكون راجعاً إلى سبب غير معين فى حين أن فرويد يعزو الإبدال إلى الصراع النفسى الداخلى . Endopsychic Conflict وعمل الرقيب . والآن قد وضح لنا رأى فرويد فى الابدال . ويرى فرويد أن الإبدال أثر من آثار الكبت لأن الكبت — كما يحب فرويد دائماً أن يذكر قارئيه — هو الحجر الأساسى الذى يرتكز عليه بناء التحليل النفسى .

---

(1) Ribot: "The psychology of the Emotions", p. 177.

(2) Janet: "Les obsessions et la psychasthénie", Vol. 1, p. 555.

(3) Freud: "Introductory Lectures on Psycho-Analysis", p. 147.

وسنذكر الآن بعض الأنماط التى يتخذها الإبدال كالإبدال نحو الأشخاص والأشياء أو نحو الذات . ونلاحظ أن أسهل وأوضح أشكال الإبدال تتمثل فى نقل المشاعر والانفعالات من شخص إلى آخر وبوجه خاص الأشخاص الذين يتعامل معهم المرء سواء فى الأسرة أو العمل . وتتجلى ظاهرة الإبدال بوضوح عند ما تتعامل مع أشخاص أرفع منا منزلة كأن يكون بيدهم مقاليد الأمور أو نخاف أن يصيبنا منهم مكروه . ففى هذه الحالة يجد المرء صعوبة فى أن يعبر عن مشاعره بصراحة ولكن من السهل عليه أن ينقل هذه المشاعر العدائية إلى من يأمن جانبهم . وقد يكون البديل السلطة بمعنى أن المشاعر العدائية تنقل من الشخص – وليكن الأب – إلى الانتقام من السلطة . فلا يجرؤ الطفل على التصريح بمشاعره العدائية نحو أبيه لحرمانه إياه من أشياء يرغبها فيحول هذا الشعور بالعداء نحو السلطة فيسرق كتب زملائه . ويمكن إرجاع معظم النزعات الإجرامية إلى ميكانيزم الإبدال ! فهى نقل للمشاعر العدائية من شخص – غالباً ما يكون الأب – إلى المجتمع .

ويمكن أن تكون الأشياء « بديلا » لما نشعر به من مشاعر وانفعالات عدوانية . مثال ذلك الطفل الذى لا يقدر على الإفصاح عن كراهيته لأخيه الكبير فيلجأ إلى تحطيم ممتلكاته . وقد يكون البديل « الذات » . فتصبح الذات محلا للنزعات والمشاعر والأفكار التى كانت موجهة فى الأصل إلى شخص آخر. وعلينا أن نميز بين حب الذات الناجم عن الإبدال وبين الاهتمام الأصيل بالذات عند الطفل الصغير قبل أن يعرف كيف يوزع مشاعره ووجداناته على الأشخاص والأشياء . فإذا ما وجه الحب إلى شخص – وليكن حب الطفل لأمه – فإن مثل هذا الحب حب يشعر معه الطفل بالذنب وعلى ذلك ينقل إلى الذات ويمكن أن يتخذ الإبدال صوراً عديدة كالأنانية أو التمركز حول الذات . وقد يتخذ هذا النوع من الإبدال صورة جحد الذات Self-renunciation . مثال ذلك الطفل الذى يضمر نزعات عدوانية قوية نحو الآخرين ولكنه يخاف أن يسفر عن هذه النزعات لخطورتها ومن ثم تتحول هذه النزعات إلى الذات وتتخذ صورة تحقير الذات أو نقدها أو الشعور بالضعة . وهذه الخصائص ، عند ما تبدو فى صورة مبالغ فيها ولا يوجد ما يدعو إليها ، يمكن النظر إليها على أنها نقل للنزعة العدوانية الموجهة إلى أشخاص غير مرغوب فيهم ، يحولون بين الشخص وتحقيق رغباته إلى الذات .

ويمكن أن يكون « الحيوان » بديلا . فمن الممكن نقل الوجدانات العنيفة

والنزعات القوية بين موضوعها الأصلى إلى موضوعات بديله كالحيوان . ذلك لأن التعبير الصريح عن هذه النزعات القوية مصدر خطر كبير للفرد . وكثيراً ما نشاهد الأطفال يقومون بتعذيب الحيوانات كالقطط والكلاب . ولعل السبب فى ذلك راجع إلى أن الأطفال يعانون وجدانات عنيفة ودوافع غريزية قوية ضد من بيدهم السلطة . ولما كان التعبير بصراحة عن هذه الدوافع مصدر خطر للطفل فإن هذه المشاعر العنيفة تنقل إلى موضوعات بديله لا ينجم عنها أى ضرر . والأمر كذلك بالنسبة للمخاوف الشديدة غير المعقولة التى يعانيها بعض الأشخاص بالنسبة لبعض الحيوانات . فإن هذه المخاوف تكشف عن نقل مشاعرنا العنيفة من الأشخاص الذين نشعر بإزائهم بتناقض وجدانى كالأب إلى الحيوان . فنحن نعرف أن الأب يكون موضوعاً للحب والخوف . وهذا الاتجاه يتضمن تناقضاً وجدانياً ! وبما أن الطفل يود شعورياً أن يكشف عن الحب فقط فإن نزعات الخوف والكراهية تنقل إلى أشخاص أو موضوعات أخرى كالحيوانات .

وميكانيزم الإبدال من الميكانيزمات الرئيسية فى تكوين الأحلام .ولقد وجه فرويد إليه الأنظار ونسب إليه أهمية خاصة . ولنذكر حلماً قام بتحليله فرنك كمثال يوضح لنا الابدال من الأحلام . ولقد رأت هذا الحلم فتاة تعانى من عصاب تسلطى . فلقد حلمت أنها فى حضرة رجل بدت هويته غامضة لها ولكنها مع ذلك تشعر بأنها مدينة له بجميل . فقدمت له مشطها كهدية رغبة منها فى الاعتراف بجميله . والمضمون الصريح لهذا الحلم مألوف . ولكى نفهم المعنى الذى يستهدفه الحلم ، علينا أن نتعرف تاريخ حياة الحالة : هى فتاة إسرائيلية تقدم لخطوبتها شاب بروتستنتى قبل حدوث الحلم بعام فصادف فى نفسها هوى وقبولا . ولكن فى اختلاف الدين عقبة حالت دون إتمام الزواج .. وكانت الفتاة تعتقد أن مثل هذا الزواج يكون سعيداً ما لم يصحبه إنجاب الأطفال لأن فى وجودهم خلق لمشاكل الدين التى يعقبها الشقاء . وفى اليوم الذى وقع فى مسائه الحلم حدث نزاع عنيف بينها وبين أمها . وفى طريقها إلى سريرها فكرت الفتاة أن من الخير لها ولعائلتها أن تترك البيت منعاً لهذا النزاع . وأستسلمت للنوم وهى تنعم النظر فى الطرق التى تمكنها من أن تقوم بأمر نفسها دون ما معونة من أهلها .

ولقد أمر فرنك الفتاة أن تترك نفسها على سجيتها وتذكر الكلمات التى تتداعى

(١) Frink: "Morbid fears & Compulsions", p. 70.

تلقائياً مع كلمة مشط . فقالت الفتاة إنها تسمع الناس يقولون لمن يحاول أن يستعمل مشط غيره « لا تفعل هذا إنك بذلك تخلط الأنساب » .

وفى هذه الفكرة مفتاح التأويل . فالشخص صاحب الهوية الغامضة هو الشاب البروتستانتى . وإعطاء الفتاة المشط له فى حلمها إنما يعبر عن رغبتها فى خلط الأنساب أى الاقتران به وإنجاب الأطفال . فهذا حلم يوضح عملية الإبدال . فالمشط المهدى إلى صاحب الهوية الغامضة « بديل » عن الرغبة فى الزواج من الشخص المجهول . وهذا التحليل يكشف عن أصالة فكرة الإبدال التى قال بها فرويد . ولكن لماذا حدث الإبدال ؟ مرد ذلك إلى الرقيب الذى لا تفلت منه الأفكار والذكريات إلا مقنعة . فالحلم لم يعبر صراحة عن رغبة الفتاة فى الزواج وإنما استعمل بديلا عن هذه الفكرة التى قمعتها الحالمة فكرة اهداء المشط . وبهذا انفصل النشاط الوجدانى عن موضوعه الأصلى وتحول إلى صورة بديله بناء على رابطة التداعى الموجودة من قبل . والإبدال هو نفس الاشتقاق الذى قال به ريبو . ولكن على المرء أن يذهب بالاشتقاق إلى أصوله . فكيف يمكن لحلم كحلم إهداء المشط أن يرتبط بعلله وأسبابه من غير استعانة بمنهج التداعى التلقائى الذى اصطنعه فرويد ؟

ولقد قام الكاتب بتحليل حلم يكشف كذلك عن عملية الإبدال . فلقد رأت إحدى السيدات فى نومها أنها فى مكان مهجور بصحبة شاب كانت تحبه قبل زواجها . وأنها دخلت فى صحبته فى كهف حيث قاما بعمل كل ما يشتهيانه . وعند خروجهما اعترضهما شرطى فأمرت صاحبها أن يبرز له قسيمة زواجهما . وتفسير الحلم لا يتضح إلا بمعرفة شىء عن الحالمة . فلقد كانت الحالمة على علاقة غرامية مع أحد الشبان . ولكن هذه العلاقة لم تتوج بالزواج مما أدى إلى زواجها بشخص آخر لا تميل إليه . وفى اليوم الذى وقع فى مسائه الحلم حدثت مشاجرة بينها وبين زوجها . ولقد أدى تفسير الحلم إلى الحقيقة الآتية : أن « الشرطى » بديل عن الزوج خاصة وأن الزوج يلبس فى بعض الأحيان ملابس شبيهة بملابس الشرطة — وأسفر عن رغبة الحالمة فى التخلص من زوجها والزواج بفتاها الذى لم تساعد الظروف على زواجها منه . فكان « الشرطى بديلا عن الزوج الذى يقف عقبة فى سبيل زواجها بمن تحب كما أن قسيمة الزواج دليل على رغبتها فى التخلص من زوجها والزواج بمن تحب .

وسنتكلم الآن عن بعض العلاقات البارزة التى يتم الإبدال فيها . وسنقتصر

فى كلامنا على نقل الطفل اتجاهاته ومواقفة بالنسبة لأبيه إلى إخوته وأقاربه وإلى من يقوم مقام الأب Parent-substitutes .

من المعروف أن الطفل يستجيب بالحب والكراهية لمواقف والديه بالنسبة له منذ السنة الأولى . ويبذل الوالدان جهدهما فى إخماد استجابات الكراهية التى تتخذ صورة الغضب والسلوك العدوانى . والدافع إلى ذلك هو رغبة الوالدين فى المحافظة على طفلهما . وفوق ذلك ، فإن حضارتنا الحالية لا ترضى عن السلوك العدوانى ومن ثم يحاول الوالدان تنشئة طفلهما وتشكيله وفقاً لقواعد السلوك المرعية جاعلين ذلك الهدف التربوى الأول .

ويظهر الطفل فى سنيه الأولى علامات الحب نحو والديه ، وإذا لم يتقبل الوالدان هذه العلامات قبولا حسناً أو عملا على كفها فإن الطفل يلجأ إلى إخمادها وكفها . وأحد الوسائل التى يلجأ إليها الطفل لمعالجة القيود التى يفرضها الوالدان على كل من نزعاته إلى الحب وميوله العدوانية هو الابدال . وأكثر صور الابدال وضوحاً هو نقل اتجاهات الطفل نحو والديه إلى إخوانه وأقاربه . فإذا ما خاب تقرب الطفل نحو أبيه فإنه ينقل مشاعر الحب والعطف نحو إخوته . وإذا كان من الخطر على الطفل أن يسفر عن نزعاته العدوانية نحو أحد والديه فإنه ينقل هذه المشاعر العدوانية نحو إخوته . ولكن علينا أن نلفت النظر إلى الحقيقة الآتية ألا وهى أن جميع ضروب المنافسة التى تظهر بين الإخوة ليست مردها كلها إلى الابدال ، ولكن هناك بلا شك حالات حولت فيها الكراهية المكبوته نحو أحد الوالدين إلى الإخوة . ولعل الأمر يكون أكثر سهولة إذا ما نقل الطفل مشاعر الكراهية التى يحسها نحو أبيه إلى اخوته . وإذا ما كانت الصلة قوية بينه وبين إخوته فإن الطفل ينقلها إلى أحد أقربائه كابن العم .

وقد يعانى الزوج وجدانات عدوانية لا شعورية نحو زوجته ولكن متانة الصلة التى تربطهما تمنعه ليس فقط من التعبير عنها بل من الاعتراف بها . ومع ذلك فإنه لا يجد صعوبة فى نقل هذه المشاعر العدوانية نحو حماته .

وكثيراً ما ينقل الطفل الانفعالات والمشاعر التى يعانيها إلى من يمثل الأب كالمدرس أو من بيدهم السلطة . وكثيراً ما يعجب المدرسون للمواقف العدائية التى يتخذها عدد معين من التلاميذ بازائهم . وتفسير ذلك بسيط ، فهؤلاء الأطفال ينقلون ما يحسون به من مشاعر عدوانية مكبوتة ازاء والديهم إلى المدرسين لأن من

الخطر عليهم أن يعبروا عنها بصراحة نحو والديهم .

ولعل من الخير أن نختم هذا المقال بكلمة عن قيمة الإبدال . إن للإبدال قيمة واضحة من حيث أنه يساعد المرء على كبت المشاعر والرغبات والأفكار الخطيرة غير المقبولة ! ومع ذلك فإنه يسمح لهذه الانفعالات العارمة بالتعبير عن نفسها الأمر الذى يترتب عليه العمل على زوال أو تخفيف التوتر النفسى الناجم عن كبتها ولقد بينت Isaacs أن ميكانيزم الإبدال يعمل على تثبيت قوة المشاعر العنيفة سلبية كانت أم إيجابية التى يشعر بها الطفل نحو والديه .

ولقد بدأ علماء النفس يقدرون شدة وقوة انفعالات الطفل . وكلما ذهب الطفل بعيداً عن دائرة العائلة فإن هذه الوجدانات العنيفة من الممكن تخفيفها بالتعبير عنها فى كثير من المواقف المختلفة الأمر الذى يترتب عليه امكان معالجتها وقيادتها على نحو حسن . وإذا ما وجهت هذه الوجدانات العنيفة نحو شخص واحد فإنها تكون فى غاية الشدة . وبما أن هذه الانفعالات الأصلية تتجه نحو أشخاص آخرين غير الوالدين فإنها تنتشر ومن ثم تزول شدتها ويتمكن الطفل من السيطرة عليها ومن ثم يكون التعبير عن الحب والكراهية ليس قاصراً على المجال العائلى بل يمتد إلى المدرسة واللعب وغيرهما . . . . فنقل الطفل لانفعالات الحب والكراهية خارج جدران العائلة ضرورى لبناء وتكوين شخصيته .

والقيمة الثانية التى بينتها Isaacs هى ظاهرة انقسام الحالة الوجدانية إلى الحب والكراهية . فإذا كان على الطفل أن يحب ويكره نفس الأشخاص بنفس الدرجة من الشدة . فمن المحتمل أن تصير هذه الانفعالات المتصارعة فى حالة حيادية الأمر الذى يترتب عليه أن لا يجرؤ الطفل على إظهار حبه وتعاونه بنفس القوة التى يبديها بالفعل لمن يعاشرونه ومن لهم به صلة وثيقة . ولعل هناك بعض الحق فى قولنا إن الحب والإخلاص الشديدين لشخص ما أو جماعة قد يصلان إلى حد من القوة يترتب عليه أن تنتقل الكراهية إلى أشخاص آخرين .

والابدال لا يعمل فقط على حماية المرء من المشاعر القوية العنيفة التى لا ترضى عنها حضارتنا الحالية ولكنه يسمح أيضاً لهذه الانفعالات بالتعبير عن نفسها بطريقة مقبولة تعين الشخصية على استكمال نموها .

كمال الدين عبد الحميد نابل

(١) Susan Isaacs: "Social development in young children", p. 309.